الفصل الحادي عشر

كتاب الحيوان للجاحظ

حياته وعصره:

الجاحظ إمام عصره في الكتابة وأمير البيان هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنائي ولد بالبصرة 159هـ وتوفي سنة 255هـ فقد عاش الجاحظ في العصر الذهبي للأمة العربية، عصر هارون والمأمون والعلوم والفنون يومئذ لذا ذخر عصره بمؤلفات عديدة وجمهرة عظمى من العلماء.

وقد عاصر الجاحظ ممن ضربوا بسهم كبير في وفرة الإنتاج الفكري والتأليف واستووا على غاية قصر عنها من عداهم وهم:-

1-أبو عبيدة معمر بن المثنى(110- 209): وكان من أهل البصرة، ولد وتوفي بها وقد ذكر صاحب الوفيات أنه قد ترك ما يقارب مائتي مصنف[1] ذكر منها ابن النديم مائة وخمسة[2] وقال فيه الجاحظ "لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلم منه"[3].

2-أبو الحسن علي بن محمد المدائني (135- 225): له نحو مائتين وأربعين مصنفا كما ورد في فهرس ابن النديم وقد روى الجاحظ عنه في البيان وفي الحيوان روايات كثيرة.

3-هشام بن محمد الكلبي الكوفي (ت206): وقد حصرها عبد السلام محمد هارون في تسعة وثلاثين ومائة مصنف.

وقد أفاد الجاحظ إفادة كبيرة من صحبته لهؤلاء الأساتذة فعشق القراءة والكتابة وكان من أقرأ أهل عصره إذ دفعه ذلك إلى أن يكري دكاكين الوراقين فيقيم على ما فيها من كتب فيقرؤها كما أثبت أبو هفان[4] العجيب أن هذه الكتب التي عشقها غدرت به وقتلته بسقوطها عليه[5] وعلى الرغم من ذلك كله فإنه قد ترك لنا مجموعة ضخمة من المؤلفات.

تصنيفاته:

ترك لنا الجاحظ مصنفات في شتى ألوان المعرفة قدرت بما يقارب ستين وثلاثمائة مصنف[6] وذكر ابن حجر أنها مائة ونيف وسبعون كتابا[7].

والسؤال الذي يطرح نفسه: أين ذهبت كتب الجاحظ العديدة ولم تصل إلينا؟ **لابد إذن أن تكون هناك أسباب أدت إلى هذا نحاول الإشارة إليها فيما يأتي أو على الأقل نذكر بعضها:-**

1- إن أعاصير الخلاف المذهبي قد عصفت ببعضها لما كانت تحوي من آراء المعتزلة الذين كان الجاحظ من رؤوسهم.

2- أدى إلى ذلك أيضا الخمود الذهني وهبوط الهمم.

3- الفوضى السياسية التي منيت بها الأمم الإسلامية في مسائها الأول والتي كانت قائمة – في أكثر ما تقوم – على التدمير والتخريب والانتقام ويثبت هذه النقاط الثلاث أن الفهرست لابن النديم لم يذكر الجاحظ ومصنفاته إلا عرضا

وأهم كتب الجاحظ التي تركها لنا[8]:

1- الحيوان: وفيه مجموعة مناظرات جدلية بين أنصار كل حيوان تحتج له مفاضلة ومفضلة ومؤيدة بالحجج والمقنعات.

2- المحاسن والمساوئ وهو محاجات جدلية تعرض لمحاسن الشيء ومساوئه.

3- البيان والتبيين.

4- كتاب الإمامة.

5- نظم القرآن.

6- الرد على المشبهة.

7- الموالي والعرب.

8- مدح التجار.

9- ذم عمل السلطان.

10- كتاب البخلاء.

ويؤخذ على مؤلفات الجاحظ افتقارها إلى حسن النظام والتبويب وكثرة الاستطرادات وربما كان مرجع هذا إلى المفهوم الذي كان سائدا آنذاك للأدب على أنه الأخذ من كل شيء بطرف فيجمع من ثم التهذيب والمعرفة والتسلية.

إذن كان للجاحظ وجهة خاصة في كتبه وتأليفه فلم يكن همه هم غيره من المؤلفين في الجمع والرواية والحفظ، وإنما حاول أن يبتكر موشيا ما يقول بالدعابة والهزل فجمع بذلك قلوب المستمعين إليه وكان يتقرب إلى العامة[9] كما استمال أيضا إعجاب الخاصة في المعارف العالية والسياسات الرفيعة.

كتاب الحيوان:

لقد سبق اليونانيون العرب في وضع كتب يكون موضوعها الحيوان أما عند العرب فكان الجاحظ أول من وضع كتابا في هذا الفن يحوي مادة غزيرة ومنهجا واضحا إلى حد كبير بالرغم من أنه سبق ببعض المحاولات لكن هذه المصنفات لم توضع بالقصد العلمي الخالص بل كانت باحثة في اللغة أولا[10].

مصادر كتاب الحيوان:

اعتمد الجاحظ في تأليفه كتاب الحيوان على عدد من المصادر نذكر منها:

1- القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

2- الشعر العربي وبصفة خاصة البدوي منه حيث كثر وصف الإبل والخيل وغيرها.

3- كتاب الحيوان لأرسطو.

4- الفكر الاعتزالي وجدل المتكلمين الذي يبرز بوضوح خصوصا في الجزئين الأول والثاني من الكتاب.

5- الخبرة الشخصية وكثرة سؤال العارفين.

صعوبة تأليف كتاب الحيوان:

لقد واجه الجاحظ في أثناء تأليفه هذا الكتاب صعوبات كثيرة خصوصا أنه كان في الشطر الأخير من حياته وقد ذكر هو نفسه هذه الصعوبات[11] **وهي:-**

1- العلة الشديدة إذ كان قد أصيب بالفالج لمدة قد تحتل ربع عمره؛ اثنتين وعشرين سنة تقريبا[12].

2- قلة الأعوان الذين كان لابد له من الاستعانة بهم في هذه الظروف.

3- حجم الكتاب الضخم إذ كلفه البحث في القرآن والحديث والشعر والأخبار والجدل وغير ذلك من كتب الفلاسفة والأطباء.

أهمية كتاب الحيوان ومنهج الجاحظ فيه:

قيمة كتاب الحيوان:

لا يعرف فضل هذا الكتاب إلا من نظر فيه طويلا وتناول نواحيه بالدرس والتبيين. وقد يوهم اسمه أنه قد خصص بالحيوان وما يمت إليه بسبب، ولكن الحق أن الكتاب معلمة واسعة وصورة ظاهرة لثقافة العصر العباسي المتشعبة الأطراف.

فقد حوى الكتاب طائفة صالحة من المعارف الطبيعية والمسائل الفلسفية كما تحدث في سياسة الأقوام والأفراد وكما تكلم في نزاع أهل الكلام وسائر الطوائف الدينية.

تحدث الكتاب في كثير من المسائل الجغرافية وفي خصائص كثير من البلدان وفي تأثير البيئة في الحيوان والإنسان والشجر كما تناول الحديث في الأجناس البشرية وتباينها وكما عرض لبعض قضايا التاريخ، وفيه كذلك حديث عن الطب والأمراض: أمراض الإنسان والحيوان وبيان لكثير من المفردات الطبية نباتيها وحيوانيها ومعدنيها.

تحدث فيه الجاحظ عن العرب والأعراب وأحوالهم وعاداتهم ومزاعمهم وعلومهم كما أفاض القول في آي الكتاب العربي وحديث الرسول العربي وكما فصل بعض مسائل الفقه والدين.

والكتاب كذلك ديوان جمع الصفوة المختارة من حر الشعر العربي ونادره وناهيك باختيار أبي عثمان وإن أردت الأمثال فإنه قد جمع لك منها القدر الكبير أو أحببت الحديث في البيان ونقد الكلام والشعر وجدت ما ترتاح إليه نفسك وتطمئن.

أما فكاهة الجاحظ فهذه قد نثرت في الكتاب نثرا وإنها لتطالعك بين الفينة والأخرى متمثلة فيما يروى من نادرة أو يحكى من قصة وأما المجون فلا عليك أن تمر به لتظهر لك ناحية من النواحي التي غلبت على كثير من متأدبي عصر الجاحظ التي لم

يوجد فيها حرج حينئذ ولا خشية.

نموذج من كتاب الحيوان للجاحظ

ما ذكر صاحب الديك من ذم الكلاب وتعداد أصناف معايبها ومثالبها: من لؤمها وجبنها وضعفها وشرها وغدرها وبذائها وجهلها وتسرعها ونتنها وقذرها وما جاء في الآثار من النهي عن اتخاذها وإمساكها ومن الأمر بقتلها وطردها ومن كثرة جناياتها وقلة ردها ومن ضرب المثل بلؤمها ونذالتها وقبحها وقبح معاظلتها ومن سماجة نباحها وكثرة أذاها وتقذر المسلمين من دونها [وأنها تأكل لحوم الناس] وأنها كالخلق المركب والحيوان الملفق: كالبغل في الدواب وكالراعي في الحمام وأنها لا سبع ولا بهيمة ولا إنسية ولا جنية وأنها من الحن دون الجن وأنها مطايا الجن ونوع من المسخ وأنها تنبش القبور وتأكل الموتى وأنها يعتريها الكلب من أكل لحوم الناس.

فإذا حكينا ذلك حكينا قول من عدد محاسنها وصنف مناقبها وأخذنا من ذكر أسمائها وأنسابها وأعراقها وتفدية الرجال إياها واستهتارهم بها وذكر كسبها وحراستها ووفائها وإلفها وجميع منافعها والمرافق التي فيها وما أودعت من المعرفة الصحيحة والفطن العجيبة والحسن اللطيف والأدب المحمود وذلك سوى صدق الاسترواح وجودة الشم وذكر حفظها ونفاذها واهتدائها وإثباتها لصور أربابها وجيرانها وصبرها ومعرفتها بحقوق الكرام وإهانتها اللئام وذكر صبرها على الجفا واحتمالها للجوع وذكر ذمامها

وشدة منعها معاقد الذمار منها، وذكر يقظتها وقلة غفلتها وبعد أصواتها وكثرة نسلها وسرعة قبولها وإلحاقها وتصرف أرحامها في ذلك مع اختلاف طبائع ذكورها والذكور من غير جنسها وكثرة أعمامها وأخوالها وترددها في أصناف السباع وسلامتها من أعراق البهائم وذكر لقنها وحكايتها وجودة ثقافتها ومهنها وخدمتها وجدها ولعبها وجميع أمورها بالأشعار المشهورة والأحاديث المأثورة وبالكتب المنزلة والأمثال السائرة وعن تجربة الناس لها وفراستهم فيها وما عاينوا منها، وكيف قال أصحاب الفأل فيها وبإخبار المتطيرين عنها وعن أسنانها وأعمارها وعدد جرائها ومدة حملها وعن أسمائها وألقابها وسماتها وشياتها وعن دوائها وأدوائها وسياستها وعن اللاتي لا تلقن منها وعن أعراقها والخارجي منها وعن أصول مواليدها ومخارج بلدانها.

وذكر علي عن أبي بكر الهذلي قال: كنا عند الحسن إذا أقبل وكيع ابن أبي أسود فجلس فقال يا أبا سعيد: ما تقول في دم البراغيث يصيب الثوب: أيصلى فيه؟ فقال: يا عجبا ممن يلغ في دم المسلمين كأنه كلب ثم يسأل عن دم البراغيث!! فقام وكيع يتخلج في مشيته كتخلج المجنون فقال الحسن: إن لله في كل عضو منه نعمة فيستعين بها على المعصية، اللهم لا تجعلنا ممن يتقوى بنعمتك على معصيتك!!

هوامش الحيوان للجاحظ

1- وفيات الأعيان لابن خلكان ج2 ص106.

2- الفهرست لابن النديم ص79.

3- البيان والتبيين للجاحظ ج1 ص347.

4- راجع ابن النديم: الفهرست ص207.

5- شذرات الذهب ج2 ص172.

6- راجع مرآة الزمان الورقة، مجلد3 ج10 ص58، مصورة دار الكتب المصرية. المسعودي: مروج الذهب ج4 ص357.

7- لسان الميزان ج4 ص375. ياقوت الحموي: معجم الأدباء ج6 ص75، 78.

8- راجع معجم الأدباء، 72/6، 73. الحيوان 378/4. مروج الذهب 47/4. وفيات الأعيان 389/1. تاريخ بغداد 12/ 214. معجم الأدباء 65/6، 71.

9- البيان والتبيين 137/1.

10- راجع كشف الظنون 456/1. ابن خلكان 188/2. ابن النديم: الفهرست ص67. والأصمعي كتاب الوحوش والخيل والشاء.

11- الحيوان 208/4، 209.

12- راجع تاريخ بغداد 219/12. الحيوان 126/2- 329، 401/6، 419/4، 109/7. الحصري وجمع الجواهر ص165، شذرات من الذهب 122/2. معجم الأدباء 75/7، 76. شرح العيون ص136. مروج الذهب 97/4. البيان والتبيين 302/3.